أدب التخاطب في ضوء السنة النبوية

Ethics of Conversation in the light of Sunnah

Dr. Abdullah Bilal
Lecturer Department of Arabic Language,National University of Modern Languages Islamabad
Email: ambilal@numl.edu.pk

Dr. Muhammad Fakhar Moeen
Lecturer, Department of Arabic Language, National University of Modern Languages,Islamabad
Email: fmoeen@numl.edu.pk

ISSN (P):2708-6577
ISSN (E):2709-6157

Abstract:
It is well known that humans are distinguished for their power of speaking which is a God gifted power and none of other living creatures are having it. It's a great gift of Allah bestowed upon humans and this gift is great facility for humans as well as responsibility. So, the good use of this power with responsibility is very important but unfortunately, we are lacking politeness and good manners while speaking to others. So, there is need of the hour to highlight the merits of conversation by promoting culture of Sunnah and by acting upon Sunnah. The conversational literature in the Prophetic Sunnah is based on great principles like uttering beautiful words, keenness to transmit the news honestly, avoid rumors and gossip and avoid all avenues that lead to poor communication between people. In view of the importance of this topic I have decided to write about the abovementioned topic.
Keywords: merits of conversation, politeness, good manners, Sunnah, uttering beautiful words.

إن الإنسان تميز بنطقه عن غيره من الحيوان، ويستعمل هذه السمة لتعبير عن مشاعره وأفكاره كما أنه يتواصل به مع غيره من الناس. وهذه قوة النطق عند الإنسان تتقاضى منه بعض الشروط لكي تتناسب مع الآداب الجميلة والأخلاق الحميدة التي تخضع لها جوانب الحياة كلها، ومن تلك جوانب الحياة أكل وشرب ولباس وطريقة العيش وغيرها من التصرفات البشرية. إلا أن أفراد المجتمعات الإنسانية يجب أن تستحسن طباعهم السليمة حسب هذه الآداب لكن أكثرية هؤلاء ينحرفون عن مقاصدها، ويتحلل من التزاماتها، كما يستبدل بها ما يناقضها ويزيل أثرها، فاحتاج هؤلاء إلى من يهديهم ويحملهم على التخلق بها، وتلك مهمة كلف الله سبحانه وتعالى بها رسله عليهم الصلاة والسلام .ومع ذلك فإن الإنسان مركب من النسيان ومعه الغفلة والإرادة فيخطي وينسى، ويتطور إلى جحود ونكران ، ويجهل ويتجاهل ويظلم ويُظلم، فتكون بذلك في حاجة إلى تجديد العهد بالسماء، فالله سبحانه وتعالى اصطفى مُحَمَّداً رسوله مبعوثاً ورحمة للعالمين، عصمه من الزلل، وأدبه وخصه بحسن الخلق وجميل الصفات، من غير كسب ولا رياضة، تنبعث منه عليه الصلاة والسلام بيسر وسهولة، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وهو سبحانه وتعلى ذكر عنه في كتابه العزيز: "وإنك لعلى خلق عظيم"[1]، وزوجة رسول الله عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين السيدة عائشة ﵂ شاهدة على ذلك حيث تقول:

[1] القرآن الكريم: 68: 4

"كان خلقه القرآن"[2] أعطاه الله تعالى جوامع الكلم ، وتممت بمبعثه عليه الصلاة والسلام مكارم الأخلاق، وكان من صميمها آداب التخاطب التي تجلت في أروع صورها في أقواله وتقاريره. ولم نرى ونجد من رسول الله عليه الصلاة والسلام في حياته كلها قبل البعثة وبعدها إلا جميل الكلام، وحسن الخطاب، ونصح أصحابه ﷺ بذلك، وهو واجه وقابل كل صغير وكبير من جاء إليه من الأعراب الذين لا يحسنون أدب الكلام ، وخاطب به غيرهم من الأمم الأخرى ممن وفد عليه أو كاتبه من ملوك عصره .نجد أدب الكلام النموذجي عند رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي يحمل صفات أدب خلقي فريد أساسه القرآن الكريم، وترجمانه سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تأدبت به الأمة الإسلامية بعده أفرادا وجماعات ، وانعكست هذه السمة في خطابهم الملفوظ والمكتوب والإشاري ، ولم يشذ عن هذا الأصل إلا من سفه نفسه من ضعاف الإيمان .، ثم حملوه إلى غيرهم من أمم الأرض، فاستضاء بنوره من رزق نعمة التوفيق .إلا أن هذا الأدب الرفيع، والخلق الحضاري الفريد، له من يسعى للحصول عليه وليس لمن يقلل من أهميته، والذي يزعم أنه يملك القيم الحضارية في التخاطب، الجديرة عنده بالتعميم، وحمل المجتمعات الدنيا في نظره على لانصياع لها طوعا أو كرها .، وقد ظفر بمن تأثر بهذه الدعاوى داخل المجتمع الإسلامي ، ويعمل على نشر الكلام السيئ والألفاظ الفاحشة بكل الطرق ، ويرى ذلك من الحقوق التي يجب صونها ، والحريات العامة المكفولة للجميع .هناك الحاجة إلى إظهار وإبراز سمات أدب التخاطب عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ضمن منظومة من القيم الحضارية لهذه الأمة، علها تعالج كثيرا من أسباب التخلف في واقع المسلمين اليوم ، وتكون منفذا من المنافذ التي يمكن للغير أن يطلع من خلالها على روعة ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الأدب الرفيع والخلق العظيم.

سمات أدب التخاطب عند رسول الله عليه الصلاة والسلام

إن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام وأدب التخاطب عنده يتأسس على دعائم تعد منطلقاته الكبرى ومبادئه العظمى، منها مسؤولية اللسان في الثواب والعقاب في الدارين ، والتمسك بالكلام الجميل، والحرص على نقل الأخبار بأمانة ، وتجنب الإشاعات والقيل والقال ، وصيانة الأعراض من أنواع الأذى ، وسد كل السبل التي تؤدي إلى سوء التخاطب بين الناس .

أولا : اللسان ومسؤوليته

نعلم أن كل جوارح الإنسان مسؤولة عما يحصل بسببها سلبا أو إيجابا ، لكنها تتفاوت في ذلك ، ومسؤولية اللسان آكد من غيره ، قال الله تعالى "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"[3]. وقد حذرت السنة النبوية على هذا الأمر، فاعتبرت منزلة اللسان خطيرة ، لأن به يكون التخاطب والتواصل بين البشر ، قال تعالى : "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"[4]، وباللسان يقع البيان ، وتنطق الشهادتان ، فيتحول من الكفر إلى الإسلام ، وبه تعلم النوايا والقصود ، وتبرم الوثائق والعقود ، ومن الناس من أعطي قوة البيان إلى درجة يسحر به المخاطب ، ويستولي على قلبه ، فيخيل إليه الشيء على غير حقيقته ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن من البيان لسحرا"[5].

وإنما البيان يذم إذا استعمل في تزيين الباطل وتقديمه على أنه الحق ، وقد أدخل مالك رحمه الله هذا الحديث في باب بعنوان "ما يكره من الكلام بغير ذكر الله تعالى"، قال الباجي رحمه اله : "على أن الذي ذهب إليه مالك رحمه الله له وجه، إن كان البيان بمعنى

---

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الأدب المفرد، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، رقم الحديث: 308، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، 1989.

[3] القرآن الكريم: 60: 18.

[4] القرآن الكريم: 17: 70.

[5] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الطب، رقم الحديث: 5767.

الإلباس والتمويه عن حق إلى باطل، فليس يكون البيان حينئذ في المعاني، وإنما يكون في الألفاظ والمبالغة في التمويه والتلبيس، فيسمى بيانا، بمعنى أنه أتى في ذلك أبلغ ما يكون من بابه ، فيكون في مثل هذا قد سحره وفتنه ، فيكون ذلك ذما"[6].أما إن كان المراد بالبيان حسن تقديم الحق فمطلوب ومحمود، واللسان من نعم الله سبحانه وتعالى وقد عدده سبحانه وتعالى في نعمه على عباده حيث يقول: "الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان"[7]، قال ابن عاشور: "وفيه الإشارة إلى أن نعمة اللسان والبيان من أجمل النعم من الله تعالى على الإنسان"[8]ومن أساليب البيان التي نبهت منها السنة النبوية ما يستعمله بعض الخصوم أو من ينوب عنهم ممن يملكون القوة الخطابية في المرافعات ، فيحاولون إظهار الحق على أنه الباطل أو العكس، وقد حذر النبي عليه الصلاة والسلام هذا الصنف عندما سمع خصومة بباب حجرته، وعند سماع هذا خرج إليهم وقال : "إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها"[9].

ونلاحظ مسؤولية اللسان في أمور الثواب والعقاب في الحديث الشريف: "اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي عليه الصلاة والسلام يعوده مع عبد الرحمان بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ﷺ ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي عليه الصلاة والسلام بكوا ، فقال: ألا تسمعون ، إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن بعذب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يرحم ، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"[10] وأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بحفظ اللسان نظراً لخطورة مسؤولية اللسان فقال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .."[11]، فربط بين الإيمان وضبط اللسان.كما ووعد عليه الصلاة والسلام الأجر لمن صان لسانه إلا في خير بالثواب العظيم فقال: "من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة"[12].

كما توعد من يطلق لسانه فيما لا يرضي الله بالعقاب الأليم فقال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم"[13].

وجملة القول أن أدب التخاطب في الإسلام ينطلق من حسن توظيف اللسان، وهي مسؤولية أناطها الشرع الحكيم بالمكلفين وجعل لهم الثواب والعقاب تبعا لاختياراتهم في استعماله، وحرصت السنة النبوية على بيان خطورته ونبهت على مسئوليته في الخير والشر، وأرشدت المخاطبين إلى ضرورة استعماله فيما يعود عليهم بالخير أفرادا وجماعات .

ومن الأجدر بالمسلمين التمسك بسنة نبيهم عليه الصلوات والسلام وهو ضمان لصيانة المجتمع من الآفات والمنزلقات التي يقعون فيها بسبب إغفال هذه المسؤولية، أو عدم تقديرها حق قدرها، وقد وردت أحاديث أخرى في الموضوع لا يتسع المقام لذكرها كلها.

ثانيا : اختيار الكلمة الطيبة واستعمالها

---

[6] الباجي، القاضي أبو الوليد، المنتقى شرح الموطا، ج9، ص485، دار النشر التوفيقية، ط1، بيروت لبنان، 2012.

[7] القرآن الكريم: 55: 1 ، 2.

[8] ابن عاشور، محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج27، ص233، الدار التونسية للنشر، تونس.

[9] البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل، وهو يعلمه، رقم الحديث: 2353.

[10] البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، رقم الحديث: 1255. 2.

[11] البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث: 6475.

[12] البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث: 6136.

[13] البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث: 6140.

الكلمة الطيبة لا تصدر إلا عن معدن طيب ، وهي مرفوعة إلى السماء ، صاحبها عزيز عند الله ، قال تعالى : " من كان يريد العزة فلله العزة جميعا، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر ألئك هو يبور"[14]، تتشوف إليها القلوب، وتستلذ بسماعها الآذان، ارتقى بها النبي صلى الله علي وسلم إلى مقام التعبد فقال : "الكلمة الطيبة صدقة"[15]، وقد فطر الله الناس على حبها "والأنس بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق، والماء الصافي ،وإن كان لا يملكه ولا يشربه"[16] .

وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه الفأل الحسن، ولما سئل عن تفسيره قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"[17] .

ومطلوب من الإنسان أن يعود نفسه على الكلمة الطيبة والقول الحسن، ولو كان في وقت الضيق والشدة، فعن ابن عباس ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل على أعرابي يعوده قال: "وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل على مريض يعوده قال له: لا بأس طهور إن شاء الله، قال : قلتَ طهور ؟كلا ، بل هي حمى تفور، أو تثور، على شيخ كبير، تزيره القبور، فقال عليه الصلاة والسلام: فنعم إذا"[18].

فالنبي عليه الصلاة والسلام راعى حالة هذا المريض، فتلطف معه بإسماعه الكلمة الطيبة التي تدخل السرور في قلبه، تسلية له عما ألم به، وتقوية له على مقاومة الآلام، وجبرا لخاطره وخاطر أهله ، وكان المتوقع أن يقابل هذا الأعرابي كلام النبي عليه الصلاة والسلام بما يليق به من رد جميل ، يُظهر به الرضا بقدر الله ويرجو رحمته ، لكنه لم يوفق لحسن الجواب ، وخانه أدب التخاطب النبوي ، فقال ما قال، لذا قال له عليه الصلاة والسلام: "فنعم إذن".

ثالثا: مطابقة الخبر للواقع

يتأسس التخاطب في الإسلام على الثقة بين الناس، إذا فقدت لم يعد للكلام معنى، ولذلك نجد الشريعة الإسلامية تذم الكذب والكذابين وتعتبره من علامات النفاق، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي عليه الصلاة والسلام قال "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"[19].

فالكذب أساس النفاق، والقاضي على الأخلاق، ينزل بصاحبه إلى الحضيض، وتصغر منزلته عند الناس إن لم نقل تنمحي وتندثر، ولم يكن الكذب من خلق الأنبياء، قال تعالى عن نبيه مُحَمَّد ﷺ: "والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون"[20] وما عرف بالكذب بين قومه قبل البعثة وبعدها، قالت له قريش: "ما جربنا عليك إلا صدقا"[21].

---

[14] القرآن الكريم: 35: 10.

[15] البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم الحديث: 2856.

[16] ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج10، ص303، دار المعرفة بيروت لبنان، 1379هـ.

[17] النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفال وما يكون فيه من الشوم، رقم الحديث: 4240، دار طيبة بيروت لبنان، ط1، 2006.

[18] البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: 3451.

[19] البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم الحديث: 33.

[20] القرآن الكريم: 39: 33.

[21] البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك) رقم الحديث: 4510.

ولا يفارقه عليه الصلاة والسلام الصدق حتى في مزاحه قال له الصحابة: «يا رسول الله إنك تداعبنا، قال إني لا أقول إلا حقا »[22]، واستحمله رجل فقال : "إني حاملك على ولد الناقة ، فقال يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: وهل تلد الإبل إلا النوق؟"[23]

ولم ينقل أن أصحابه ﷺ كذبوا، لأن الكذب والإيمان لا يجتمعان، وقد اتفق جمهور المحققين من أهل العلم أن جميعهم عدول، عدلهم الله في مواطن من كتابه العزيز ، منها قوله تعالى : "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحث الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا"[24].

رابعا : تجنب القيل والقال وكثرة السؤال

إن البحث في أمور الناس التي لا طائل تحتها والحرص على الإخبار بها لهو من العادات السيئة، والأمراض الخطيرة التي يستوجب صاحبها النصح الواجب للمسلمين، وينبه على وجوب الإقلاع منها بالرجوع إلى الهدي النبوي ورياضة نفسه على تمثله، فمن كان هذا صنيعه ودأبه قد لا يحرص على أمانة النقل ، ولا يتحرز من التحدث بالإشاعات من غير تثبت ، ويفرغ جهده في تتبع أمور هو في غنى عنها .

لذلك نهى عليه الصلاة والسلام عن الاشتغال بهذه الخصلة، قال: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعا وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال"[25].

ولفظ السؤال الوارد في الحديث عام يشمل البحث في أخبار الناس التي لا تعني السائل، ويشمل كذلك إلقاء الأغلوطات من أجل التعجيز أو ما يشبه ذلك، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى أصحابه عن السؤال الذي يستجلب التحريم فيما سكت عنه لئلا يحرم بسبب سؤاله .

خامسا: عدم إلحاق الأذى بالغير

من المبادئ الكبرى لأدب التخاطب في السنة النبوية الكف عن إلحاق الأذى بالناس بغير وجه حق، وذلك بإسماعهم صراحة أو تعريضا ما يكرهون ، روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي عليه الصلاة والسلام قال "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[26].

فعبر عليه الصلاة والسلام باللسان وإن كان الأذى يقع ببقية أعضاء الجسم، ولا سيما منها اليد، لأن اللسان قد يخوض في أعراض الناس الحاضرين والغائبين وهم في كلت الحالتين يحصل لهم الأذى به.

واستخرج ابن حجر في التعبير باللسان دون القول نكتة، وهي استيعابه لمن أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء[27].

---

[22] الضحاك، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، الشمائل المحمدية، باب ما جاء في صفة مزاح رسول الله ﷺ، رقم الحديث: 233، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 1990.

[23] الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح، رقم الحديث: 4409، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1991.

[24] القرآن الكريم: 48:18.

[25] النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم الحديث: 3339.

[26] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب المقدمات، باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم، رقم الحديث: 211.

[27] العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني أبو الفضل ابن حجر، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج1، ص81، المطبعة السلفية القاهرة مصر، ط1، 1379.

أما لفظ " المسلمين " الوارد في الحديث، فليس قاصرا عليهم، وإنما خرج مخرج الغالب ، فيدخل فيه المسلمات والكفار اللذين أمر الشرع بكف الأذى عنهم[28]

واعتبر النبي عليه الصلاة والسلام التعرض للأعراض بالتهم العارية عن الدليل من لكبائر، فقال : "اجتنبوا السبع الموبقات"[29]، وذكر منهن قذف المحصنات المؤمنات الغافلات.

ولما كان الأذى الذي ينتج عن الكلام يتخذ أشكالا مختلفة ، فإن السنة النبوية أمرت بتجنبها كلها من أجل الحفاظ على أعراض الناس ، ومن ذلك :

1- النميمة :

النميمة نقل حال شخص أو أقواله إلى آخر بقصد الإفساد، فالنمام يتخذ من التخاطب وسيلة للإيقاع بين المنقول إليه والمنقول عنه ، وهي من الخصال الدالة على الحقارة والدناءة، تقوض أسس العلاقات بين الناس.

وحكم النميمة في الشريعة الإسلامية معلوم، قال تعالى "ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم"[30] ، وسمع النبي عليه الصلاة والسلام بعذاب النمام والذي لا يستتر من بوله في قبريهما [31]،وكسر جريدة نخل وضع جزئيها عليهما، وكفى بالنميمة دناءة مقارنتها بالنجاسة .

وليس من التحضر الإنساني وجود هذه الخصلة في المجتمع ،لأن الأضرار التي تسببها بين الأفراد بليغة الأثر، سيئة الوقع ، أيسرها التدابر والتقاطع، وشرها المكيدة وسفك الدماء ،كما تصيب الأفراد والجماعات تفسد أيضا العلاقات الدولية قديما وحديثا .

2 – الغيبة :

الغيبة ذكر الإنسان بما يكره بظهر الغيب – تصريحا أو تلميحا – وإن كان فيه المذكور، وورد هذا المدلول بوضوح في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال :ذكرك أخاك بما يكره.."[32] .

وهي من الخصال التي علم النهي عنها في الكتاب والسنة ، قال تعالى "ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم."[33]

ووردت أحاديث نبوية تدل على ذم هذه الصفة، وتنذر صاحبها بسوء العاقبة ، وكفى بها قبحا أن يشبه صاحبها بآكل لحوم البشر ، وهي جديرة بهذا الحكم لما تسببه من الأذى للناس بدن وجه حق ،كلمة أو كلمات ينطق بها المغتاب ويظن أنها هينة وهي عند الله عظيمة ، غير أن العلماء استثنوا منها حالات يجز الشرع فيها ذكر الناس بما فيهم وإن كانوا له كارهين ، منها الاستغاثة والتظلم وما يقتضيه ضبط العلوم الشرعية وإيصال الحقوق لأهلها كجرح الرواة والشهود[34] .

---

[28] الندوي، مُحَّد الرابع الحسني، الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، ص11، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت لبنان، 1985م.

[29] النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم الحديث: 158.

[30] القرآن الكريم: 68: 10، 11

[31] البخاري، مُحَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم الحديث: 212.

[32] النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم الحديث: 4818.

[33] القرآن الكريم: 49: 12.

[34] الصنعاني، مُحَّد بن إسماعيل الأمير، سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَّد ناصر الدين، ج2، ص193، مكتبة المعارف، القاهرة مصر، 2006.

ومن تأمل أحوال الناس اليوم يرى أن كثيرا منهم لا يتورعون عن هذه الخصلة السيئة ، مع أن حكمها معلوم في الشرع لدى الخاصة والجمهور الغفير من العامة ،ويشتد الاستغراب والتعجب عندما نرى بعض أهل العلم والمشهورين بالصلاح متلبسين بها ، غافلين عما لهم به علم ،فكيف بمن دونهم من السواد الأعظم للأمة ، نرى ذلك في بعض الكتابات ونسمعه في الأقاويل والخطب الصادرة منهم ، ولم يحوجهم إلى ذلك موجب شرعي ، ويبدو الأمر نوعا من المرض النفسي يهجم على صاحبه شيئا فشيئا حتى يستولي عليه ، ويحتاج من يريد الشفاء منه إلى مداومة العلاج القرآني والهدي النبوي حتى يحس بزواله .

3– السباب :

السباب بالكسر يقتضي المفاعلة، وأصله من السب بمعنى القطع ، وقيل من السبة : حلقة الدبر، سمي الفاحش من الكلام بالفاحش من الجسد .

ولم يكن الفحش من أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام صفة وفعلا ونطقا ، روى البخاري بسنده عن مسروق قال : "دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم مع معاوية إلى الكوفة فذكر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال : لم يكن فاحشا ولا متفحشا.."[35]

والسب من أخلاق الجاهلية المذمومة شرعا وطبعا ، بالغ النبي عليه الصلاة والسلام في ذمه، لما فيه من احتقار المخاطب ، فعن المعرور ابن سويد عن أبي ذر قال : "رأيت عليه بردا وعلى غلامه بردا ، فقلت : لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة وأعطيته ثوبا آخر، فقال : كان بيني وبين رجل كلام ، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لي: أسابيت فلانا ؟ قلت : نعم، قال : أفنلت من أمه ؟ قلت : نعم، قال : إنك امرؤ فيك جاهلية.."[36]

فالنبي عليه الصلاة والسلام حريص على تربية أصحابه على حسن الكلام ، ولم يسكت عما تلفظ به الصحابي أبو ذر ،وإنما استفسره فأقر ، فنسب عليه الصلاة والسلام ما أقربه إلى الجاهلية التي يجب على المسلمين قطع الصلة بأخلاقها الذميمة .

وجعل عليه الصلاة والسلامسباب المسلم رديف الفسوق، فقال : "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"[37]، فلا يسب إلا فاسق ، ولا يشتم إلا جاهل .

سادسا : سد ما يفضي إلى سوء التخاطب

تدل التوجيهات النبوية في أدب التخاطب على وجوب تجنب ما من شأنه أن يؤثر سلبا على ما عتاده الناس من الكلام الحسن، وذلك بحسم العوامل التي تؤدي إلى نقيضه، وهي عوامل كثيرة، نذكر منها الغضب والجدال المذموم ومناجاة اثنين دون ثالث.

1–عامل الغضب

الغضب انفعال يطرأ على المرء لأسباب مختلفة، منها العجب والغلظة، يصيب التفكير السليم بالتوقف ، ويفقد صاحبه الاتزان والاعتدال ، فيندفع إلى اتخاذ قرارات غير حكيمة ، وينطق بكلمات خاطئة، لا يليق أن تنسب إليه، وقد يستحيي من نفسه عندما يؤوب إليه رشده من سوء ما فعل وما قال .

والغضب أنواع : مذموم وجائز ومطلوب .

---

[35] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب (لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا)، رقم الحديث: 5705.

[36] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب(المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك)، رقم الحديث: 30، 2002.

[37] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم الحديث: 48.

فالمذموم منه ما ذكر، وقد نهى عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وذلك باجتناب أسبابه، وعدم التعرض لما يجلبه ، جاءه رجل يطلب وصية ، فقال له عليه الصلاة والسلام« لا تغضب"[38] فاختصر له المطلوب في كلمة واحدة " لا تغضب " ، قال ابن حجر بعد ما ذكر بعض مفاسد الغضب : "ومن تأملها عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله عليه الصلاة والسلام" لا تغضب " من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته"[39]، أما الغضب الذي لا يخرج صاحبه عن حد الاعتدال، ولا يأتي بسوء الكلام فجائز، وفي السنة النبوية أمثلة لهذا النوع ، فقد غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام عندما علم أن إماما يطول بالناس في الصلاة ، قال أبو مسعود الأنصاري : « فما رأيت النبي عليه الصلاة والسلام أشد غضبا من يومئذ ...» الحديث [40].

وعندما سئل عليه الصلاة والسلام عن ضالة الإبل، روى زيد بن خالد الجهني "أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سأله رجل عن اللقطة، فأجاب: عرفها سنة، ثم اعرف وكاءها وعفاصها، ثم استفق بها ، فإن جاء ربها فأدها إليه، قال: يا رسول الله فضالة الغنم؟ قال: خذها، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب، قال: يا رسول الله فضالة الإبل؟ قال: فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى احمرت وجنتاه أو احمر وجهه، ثم قال: ما لك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها حتى يلقاها ربها"[41] وإنما غضب عليه الصلاة والسلام لأن السائل قصر فهمه عن مراد رسول الله عليه الصلاة والسلام فسوى بين اللقطة التي ينبغي التعريف بها وبين التي لا يتعين فيها ذلك.

وكانت السيدة عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام قالت: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إني لأعلم إذا كنت عني راضية ، وإذا كنت علي غضبى ، قلت : بم تعلم يا رسول الله ؟ قال : إذا كنت علي غضبى فحلفت قلت : كلا ورب إبراهيم ، وإذا كنت عني راضية قلت : كلا ورب محمد ، قلت : صدقت يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك"[42] غير أن الغضب يؤول في بعض الأحيان إلى المطلوب وذلك عندما تنتهك حرمات الله ، ويقع الاعتداء على كتاب الله أو سنة رسوله، أو التجرؤ على إيذاء رسول الله عليه الصلاة والسلام بكلمة أو كتابة أو مسرحية أو رسومات استهزائية أو إيذاء نبي من أنبيائه أو رسول من رسله أو غير ذلك مما أثبت له الشرع الحرمة والحصانة . والغضب المذموم يؤمر المصاب به بالتخلص منه عن طريق استعمال العلاج القرآني والنبوي[43] - ومجمل القول أن الغضب لما كان منفذا من نوافذ سوء التصرفات في الأقوال والأفعال، ويؤدي بمن لا يقوى على ضبط نفسه بضوابط الشرع أ ن يتلفظ بفحش الكلام يؤذي به الغير ، وينطلق لسانه بالسب والشتم والفجور، ناسب أن يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بتجنبه حفاظا على اعتدال التفكير وصونا لمشاعر المخاطبين وحقوقهم .

2- عامل التنازع والجدال المذموم :

---

[38] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث: 5787.

[39] العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني أبو الفضل ابن حجر، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج10، ص735، المطبعة السلفية القاهرة مصر، ط1، 1379.

[40] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره، رقم الحديث: 90.

[41] الحميري، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، موطا إمام مالك، كتاب الأقضية، باب القضاء في اللقطة، رقم الحديث: 1454، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 1985م.

[42] النسائي، أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، كتاب عشرة النساء، غضب المرأة على زوجها، رقم الحديث: 7914، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 2001م.

[43] كيالي، سهام طه، الغضب المردي، ص63، دار المعرفة، بيروت لبنان، 1998م.

الجدل نوعان : مباح ومذموم، فالمباح هو ما كان عن علم ، ولم يخرج عن نطاق الشرع في وسائله ومقاصده ، قال تعالى : "وجادلهم بالتي هي أحسن"[44]، ويدل عليه في السنة النبوية ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر والحوار الذي وقع بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين الأعرابي الذي أنكر أن يكون له ولد أسود، قال أبو الوليد الباجي في كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج : "وهذه حقيقة الجدل ونهاية تبيين الاستدلال من رسول الله ﷺ، وهو المعصوم الذي يجب علينا اتباعه، وامتثال أوامره من غير أن نطالبه بدليل على أعيانها ،يبين الأدلة ويرتبها حق ترتيبها ليكون أسبق إلى الفهم وأبعد من الوهم ، فكيف بمن يجوز عليه كثير النسيان والسهو ، بل لا يخلو من الخطأ والهفو"[45] .

أما المذموم منه فهو الصادر عن جهل والمفضي إلى التنازع والخصام وسوء الكلام، بغية الانتصار على الخصم ولو بالباطل، وهذا النوع نطق به القرآن ، قال تعالى : "هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم" [46].

وقد كان هذا النوع سبب رفع تعيين ليلة القدر، روى أنس بن مالك قال: أخبرني عبادة بن الصامت أن رسول الله عليه الصلاة والسلام خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال : إني خرجت لأخبركم بليلة القدر ، وإنه تلاحى فلان وفلان، فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم.."[47]

3– عامل مناجاة اثنين دون واحد :

قال الله تعالى: "لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نوتيه أجرا عظيما"[48].

من حسن الأدب ومكارم الأخلاق ، ألا يتهامس اثنان ويتركان الثالث، لما يسببه ذلك من الوسواس له، فقد يظن أنهما يغتابانه و يتكلمان عنه بشيء يكرهه ، روى مالك في موطئه عن عبد الله بن دينار قال : "كنت أنا وعبد الله بن عمر عند دار خالد بن عقبة التي بالسوق ، فجاء رجل يريد أن يناجيه ، وليس مع عبد الله بن عمر أحد غيري وغير الرجل الذي يريد أن يناجيه ، فدعا عبد الله بن عمر رجلا آخر حتى كنا أربعة ، فقال لي وللرجل الذي دعاه : استأخرا شيئا ، فإني سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : لا يتناجى اثنان دون واحد"[49]. مما سبق من الأحاديث النبوية وغيرها مما لم يسمح المقام بذكره يتبين أن السنة النبوية حرصت على تنبيه المخاطبين على ضرورة مراعاة الحسن والجمال فيما يتلفظون به ، ووجهتهم إلى مراعاة الأدب في التخاطب.

Biblography

Al Qur'ān Alkarim

Bukhari, Muhammad Bin Ismail, Aladab Almufrid, Dar Albashair Al islamia, Beirut Lebanan, Edition 3, 1989.

---

[44] القرآن الكريم: 16: 125.

[45] الباجي، أبو الوليد، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي، ص8، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2001م.

[46] القرآن الكريم: 3: 66.

[47] البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم الحديث: 49.

[48] القرآن الكريم: 4: 113.

[49] النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الإثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم الحديث: 4169.

AlBaji, Alqadi Abu Alwalīd, Almuntaqa Sharh Almūta, Dar Alnashar Altaufeqiah, Edition 1, Beirut Lebanan, 2012.

Ibn Ashūr, Muhammad Altahir Bin Ashūr, Tafsīr Altahrīr wa Altanwīr, Aldar Altunsia Lilnashar, tunas.

Ibn Hajar, Ahmad bin Ali bin Hajar Abu Alfadal Alasqalani Alshafi, Fatah Albari Sharh Sahīh Albukhari, Dar Almarfa Beirut Lebanan, 1379.

Alnīsaburi, Muslim bin Alhajaj bin Muslim Alqushairi, Sahīh Muslim, Dar Taiba, Beirut Lebanan, 2006.

Aldahaq, Muhammad bin Eesa, bin Sura, Mūsa, Alshamail Almuhammadia, Dar Ihya Alturas Alarbi, Beirut, Lebanan, 1990.

Altirmzi, Muhammad bin Eesa, Sunan Altirmzi, Maktaba Mustafa Albabi Alhlbi, Edition 3, 1991.

Alasqalani, Ahmad bin Ali bin Muhammad Alkanani Abu Alfadal ibn Hajar, Almuhaqiq, Abdul Aziz bin Abdul Allah bin Baaz, Fatah Albari Sharh Sahīh Albukhari, Almatba Alsalfia, Cairo, Egypt, Edition 1, 1379.

Alnadwi, Muhammad Alrabi Alhusni, Aladab Alislami wa silatuh bil Hayat ma Namazij min Sadr Alislam, Muassassa Alrisala, Beirut, Lebanan, 1975.

Alsinani, Muhammad bin Ismail Alameer, Subl Alsalam Sharh Balogh Almaram min Adilla Alahkaam, Tehqīq: Albani, Abu Abdul Rehman Muhammad Nasiruddin, Maktaba Almaarif, Cairo, Egypt, 2006.

AlHumairi, Malik bin Anas bin Malik Alasbhi, Tehqīq: Muhammad Fawad Abdul Albaqi, Mūta Imam Malik, Dar Ihya Alturas Alarbi, Beirut, Lebanan.

Alnisai, Ahmad bin Ali bin Shoaib bin Ali bin Sanan, Tehqīq: Hasan Abdul Munen Shalbi, Muassassa Alrisala, Beirut, Lebanan, 2001.

Kiali, Siham Taha, Alghadab Almardi, Dar Almarfa, Beirut Lebanan, 1998.